الهوية و الانتماء بين الحضور والغياب في الإبداع الجزائري

ط/د.رابح قيرود إشراف الدكتور. خيرة مكاوي
جامعة مستغانم

الملخص: إنّ الحديث عن الهوية و الانتماء في حدّ ذاته إشكالية ، فما بالك بالكتابة عنها أو التصدّي لها بالبحث والدرس و التحليل ؟

ولذا فإنّ هذا المقال يحاول أن يجيب عن سؤال محوريّ هام لماذا الكتابة عنها في هذا الظرف بالذّات؟

وهل أدرك كتّابنا أهميّتها فعملوا على تعزيزها فيما انتجوا من إبداع ولم يزالوا ؟

الكلمات المفتاحية . الهويّة-الانتماء-خطاب-إبداع.

Summary.

Speaking about identity and belonging is itself an issue ، so how can we write about it or confront it by research ، study ، and analysis ?

This article, is trying to give an answer to a crucial question
Why writing about this issue just now?
And are our writers aware about its in portane and do they do anything to en rich it by producing creative works?

Key words!
Identify –belonging –address-creativity.

هل يمكن التحصّن بالهويّة والانتماء في عالم أصبح يفضّل التطوّر المادي على كلّ مقوّم روحي ؟وما الحاجة إلى الكتابة عن الهويّة و الانتماء في هذا الظرف التاريخي بالذات ؟وهل يمكن الركون إلى عالم يتفتّح على كلّ الهويّات ؟إنّ هذه الأسئلة فيها كل مسوّغات القلق ،هذه المسوّغات التي يختزلها سؤال الهويّة والانتماء،الأمر يصبح مشكلة تستحق الدّرس والبحث ،وخاصة حينما نسقط تلك الأسئلة على حالة المجتمع الجزائريّ ،هذه الحالة قد أفرزت موجة من التشكيك في النفس، أعني التشكيك في وجود هويّة جزائريّة تمتّد جذورها إلى الماضي السحيق.

ويشترك فيها أبناء هذا الوطن .وتحوّل هذا التشكيك إلى عداء يعبّر عن نفسه بأسلوب جديد ، يظهر في عدم تكريس هذه القيّم (الهويّة والانتماء)في الوقت نفسه يرفع شّعار الخصوصيات والعرقيات {*} ولذا أصبح العداء موجّها إلى محاربة هذه القيّم كمبرّر للتراجع عن وحدة هذا المجتمع.

وهذا ما نلمسه في ظل انحصار الحسّ الوطنّي ،وهذا ما نخشاه في ظلّ هذا التردّي الحاصل ،إنها عوائق جديدة تضاف في طريق وحدة أبناء هذا المجتمع ،إنّ هويّتنا وانتماءنا كجزائريين وعرب ولا نغفل الدين هو تاريخنا ، وعندما نتخلّى عنها نتخلّى عن ماضينا وتراثنا ونضالنا وأمجادنا وبذلك نكون خارج السّباق في عالم يفرض علينا ألاّ نبقى على هامشه وذلك لن يكون إلاّ بالتمترس و التحصّن بالخطاب المذكور آنفا ، ومن لا يملك هويّة و انتماء لا يصنع تاريخا ولا يغيّر واقعا.

من خلال هذا السّياق تكتسب الكتابة عن الهويّة والانتماء كقيمتيين في الظرف الراهن أهميّتها ،وهي أهميّة تتجاوز تأكيد الوجود ، إلى محاربة دعوات الاستسلام والتيئيس والكلام في هذا السّياق يعنيّ إعادة النظر في تحديد معالم هاتين القيمتين، إذ أنّ أكبر خدمة يمكن أن تُقدّم اليوم إلى أبناء هذا المجتمع تكون من خلاله

الحرص على هويّته والحفاظ على انتمائه المحليّ والقوميّ والإسلاميّ و الحفاظ على سلامة ترابه من خطر الدّعوات المغرضة على إشعال نار الفتنة فيه ،وبذلك يذكو خطر التقسيم الطائفي .

وإذا فإنَّ استمرار قيام هذا المجتمع ، وعدم تفتيته رغم ما أصابه من محن وإحن {*}.يعتبر مكسبا يصبّ في تكريس وتثبيت هذه القيّم وترسيخها.

الهويّة :الماهيّة والمفهوم

مفهوم الهويّة يتحدّد بناء على الدلالة اللّغويّة والتاريخيّة لهذا المصطلح، ويقابل هذا في الفرنسية ،وهو من أصل لاتينيّ ويعنيّ : (Identité) المصطلح العربي كلمة الشيء نفسه ، أو الشيء الذي ما هو عليه ، أي أنّ الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر كما يعني هذا المصطلح في اللّغة الفرنسيّة ((مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما هو عينه شخصا معروفا ومتعيّنا .))[1]. والهويّة في اللّغة العربيّة مصدر صناعيّ من ((هو)) ضمير المفرد الغائب المعرّف بأداة التعريف ((ال)) ، ومن اللاحقة المتمثلة بال ((ي)) المشدّدة وعلامة التأنيث أي ((ة)) ويعرّف المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللّغة العربيّة ((الهويّة)) بأنّها ((حقيقة لشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره ، وحين تضاف إلى الكلمة "بطاقة " ، أو توصف بالنعت ،، الشخصيّة ،، لتجعلنا نحصل على المصطلح " بطاقة " ، أو" البطاقة الشخصيّة ")) [2].

ويرى د. نديم البيطار أنّ((أنّ هويّة الأمّة هي هويّة تاريخيّة ،والتاريخ هو يشكلّها)) [1]. وهذا يعنيّ أنّه لا وجود لهويّة خارج المجتمع والتاريخ ،فا الأمّة تمتلك الهويّة سواء كانت جماعة صغيرة أو كبيرة {*}.وأيّ فرد لا يستطيع الاستقلال عن هذه الجماعة ،أيّ أنّه في حاجة ماسّة إلى هويّة تجمعه مع الآخر ، لأنّه لا يستطيع بمفرده أن يصنع لنفسه هويّة ،وبالمقابل ليس لأيّ قوة أن تفرض هويّة ما على جماعة من النّاس دون اختيار من طرفهم ، وبهذا المفهوم أنّ الهويّة مثل ((أرض الوطن)) بالنسبة إلى الشّعب ،فهي ملك مشاع للجميع ، ولكن ليس لأيّ أحد أن يفرّط بجزء منها ، كما أنّه لا يصحّ التنازل عنها .ويمكن القول حول مفهوم الهويّة بأنّها الرمز ، استنادا إلى الخلفيّة الثقافيّة والتاريخيّة الواحدة لأبناء هذه الجماعة {*}. وممّا يجعل هذا الاعتزاز بها أمرا مشروعا ،وحدة المصالح والمستقبل الواحد ، وبهذا المعنى الهويّة هي الذات الجماعيّة لأفراد الأمّة كلّهم والمسّ بها يهدّ كيانها كلّها وفي الوقت نفسه يمسّ كلّ فرد منها ، لأنّ ذلك شكّ في ماضيها وطعن في حاضرها ويأس من مستقبلها .

فلهذا تعرف الأمّم وتتمايز بهويّاتها التي صنعتها عبر الحقب التاريخيّة ، فتصبح في حقيقتها دافعا دائما للبحث عن حياة أفضل لهذه الأمّة أو تلك في المستقبل ، إذ أنّها لا ترتبط بالماضي فقط ، الأمر الذي يجعلها دائمة الحضور في الضمير الجمعي في الأمّة ، وإن تشكلّ هذا الحضور في كلّ عصر عبر التاريخ.

فلهذا فإنّ الهويّة هي الحقيقة التي تعبّر عن ذات الأمّة، وإذا فإنّ الهويّة للإنسان الجزائريّ هي الهويّة العربيّة الأمازيغيّة الإسلاميّة دينا .

وذلك أنّنا شّعب أمازيغي ، وإنّه لا يصحّ الانتساب إلى الهويّة الأمازيغيّة إلاّ لمن كانت جذوره أمازيغيّة ،وعرب إذ أنّ لغتنا الأم هي اللّغة العربيّة ،وندين بالإسلام وننتسب إليه منذ قرون .

قد لا يشكّل الدّين بمفرده هويّة ،إذ أنّه لو صحّ لأصبح العالم مقسّما لعدد محدود جدا بالهويّات ،ثلاث هويّات للدّيانات السماويّة ،وعدد آخر لا يحصى من الهويّات المرتبطة بالديانات الوضعيّة ،هذا التفسير لا ينطبق على الاسلام وذلك من منطلق أنّه لم يُحرف ،وأنّ الجانب الإنسانيّ فيه أكثر من الدّيانات الأخرى ورحابته لا تضيق بالقوميات على تعدّد أشكالها وأنواعها .

إنّ إشكاليّة الهويّة تتصف بطابع العمق والشمول ،إذ أنّها تعتبر كأزمة ، مرّدها وجود الإنسان الجزائري في ظل كيانات اجتماعيّة متعدّدة ، ومتعارضة، بدءا بالقبيلة ومرورا بالطائفة ، وانتهاء بالدّين والقوميّة ، وعلى اعتبار أنّ الجزائر جزء من هذا الوطن الكبير:(فهو كيان مركّب معقدّ، تتداخل فيه عناصر الولاءات المحلـــيّة بالولاءات الوطنيّة ،ولا تتطابق حدود الجغرافيّة مع حدود المشاعر ، ولا حدود السياسة مع حدود الأمّة){1}.

وعليه فإنّ تناقضات الولاء وتعدداته يؤدي إلى حالة من الانكسار في الهويّة ، وإلى حالة من التمزّق في الوجدان ،هذا الوجدان الذي تتنازعه مشاعر انتماء متعارضة ومتناقضة .إنّ تنامي مشاعر الانتماء الطائفيّ والقبليّ أدّي إلى بروز مشاعر الولاء والتعصّب ،فأغلب مكوّنات الطيف الجزائريّ كما العربيّ يعيش تحت تأثير موجة من القيّم ذات الحمولة العصبيّة والتمييز الطائفيّ والعرقيّ الذي هو كسوسة ينخر عظام الوجود الثقافيّ للأمّة دون أن نغفل وجودها السياسيّ كدولة . وفي غمرة هذه الموجة العارمة لهذه الولاءات الضيّقة بدأ هذا الانسان يتعرّض لكل أنواع المسـخ والذوبان في الآخر.

وإذا هذه الاشكاليّة ،إشكاليّة الانتماء كما إشكاليّة الهويّة يجب أن تطرح كقضيّة يجب التعرّض لها ، إذ لا يمكن في حال من الأحوال أن نكون كالنعامة تخفي رأسها في الرمال وقت الخطر ،لأنّ هذه الإشكاليّة كما إشكاليّة الهويّة ، تتداخل مع عدة منظومات في المجتمع {*}.

والأسئلة التي يمكن طرحها حول قضيّة الانتماء ، كما طرحناها سابقا حول الهويّة: هل نحن عرب أم مسلمون؟ ،هل نحن أبناء العشيرة أم أبناء الوطن ؟هل نحن ننتمي إلى الدّين أم ولاءنا للطائفة ؟ وهل اللّغة هي التي تحكم انتماءنا أم أنّ اللّهجة هي التي تحدّده ؟ هذه الأسئلة الإجابة عنها تؤسّس لرؤيّة ثقافيّة بالغة الأهميّة ، وتقدم صورة قد تكون موضوعيّة لصورة الانتماء كما الهويّة التي يحتكم إليها هذا المجتمع ،كما يمكن أن تسلّط الضوء على جوانب أخرى في هذا المجتمع الذي تتنازعه مشاعر متعدّدة : الدّين والوطن والعرق .

1. الانتماء: المفهوم والماهيّة

الايقاع السريع للتغيّرات التي طرأت وتطرأ على الحياة السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة في المجتمع ،أدّى إلى الظهور أحيانا وخفوت أخرى مسألة الانتماء والولاء للوطن هذا الإتّجاه والتصوّر سيعمل بل سيساعد في تفتيت الأمّة،ويجعلها لا تواكب متطلبات العصر ومتغيّراته ولا يمكنّها من التعامل بإيجابيّة مع الظواهر

والقضايا والمفاهيم المتجدّدة في حياة هذه الأمّة، وعليه فما مفهوم الانتماء؟وما هي حقيقته؟ أ-مفهوم الانتماء:

-الانتماء لغة:

((الانتساب ،يقال :انتمى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه النسب))[1].ويشترك تعريف الانتماء اصطلاحا مع التعريف اللّغوي بأنّ كليهما انتساب .

–الانتماء اصطلاحا:((الانتساب الحقيقيّ إلى أمر معيّن فكرا وتجسّده الجوارح عملا كأن يكون للوطن مثلا أو للقبيلة أو الدّين ،متفاعلا معه قولا وعملا مستعدّا لنصرته ،والذّود عنه بكلّ ما يملكه))[2].

وهذا التعريف يشير إلى أنّ الانتماء من أهم مقوّمات الولاء للوطن و للدّين أو للعرق ، فلذلك سعى الإنسان منذ القدم إلى إصدار القوانين التي تحدّد طبيعة انتمائه إلى المكان الذي ولد فيه ،أو عاش فيه ، فكانت ممارسة هذا الشعور ،أو قل هذا الحق تابعة للنّظام ومدى منحه ((لهذا الحق ،ومدى حرص المواطنين على أداء واجبهم وممارسة هذه الحقوق في الوطن الذي يعيشون فيه))[3]. فالإنسان في حياته ينتمي إلى دوائر متعدّدة ،والانتماء للوطن أو للقبيلة أو للمكان هو أحد هذه الدوائر ،والتوفيق بين الانتماءات من محبّة للأسرة والعائلة ثم الجماعة ثم الوطن ،لا تلغى فيه الذاتيّة وما دونها ،ولكنّ المنهيّ عنه التعصّب والطائفيّة التي تؤدّي إلى الفرقة والانقسام وتحرّض على الظلم كما هو حاصل في المجتمعات العربيّة والمجتمع الجزائري بفعل طروحات خارجيّة، مّما أصبح يشكل معضلة أدّت في الكثير من الأحيان إلى مشاكل أوصلت المجتمع إلى التناحر وسفك الدّماء وما العشريّة السوداء عنّا ببعيدة، وما يُتلفّظ به في ملاعبنا لخير دليل على ذلك. وبالتّالي فإنّ تعدّديّة الانتماء-كما ذكرنا سابقا –تؤدي إلى حالة من الانشطار في الهويّة ،ومن التمزّق الوجدانّي الدّاخلي عند هذا الإنسان الجزائريّ الذي تتجاذبه مشاعر انتماء متعارضة ومتنافرة في مختلف المستويات والاتجاهات.

((فالكثير منّا لم يزل ينظر إلى الانتماء على أنّه يخصّ الجانب السياسيّ وتجليّاته في حين أنّه يتجذّر في كافة الجوانب الثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة))[1].

فالانتماء بالمفهوم الإيجابي يؤكّد حضور مجموعة متكاملة من الأفكار والقيّم والتقاليد والأعراف التي تتجذّر في أعماق هذا الفرد فيحيا بها و تحيا فيه ((حتى تتحوّل إلى وجود غير محسوس كأنّه الهواء يتنفسه وهو لا يراه)) [2].

ويشكّل هذا الشّعور جذور الهويّة وعصب كينونة الفرد و المجتمع . فالانتماء هو إجابة عن سؤال الهويّة في صيغة من أنا ومن نحن ؟ . وإذا هل أدرك الكتّاب والمثقّفون عبء تجسيد الشعور بالانتماء ،وتكريس الهويّة في هذا المواطن ؟ وكيف تجلّى هذا الخطاب (الهويّة و الانتماء) في الإبداع الجزائري ؟ وهل كرّس هؤلاء هذه القيّم وعملوا على ترسيخها في شبابنا ؟ .

2-الخطاب الإبداعي الجزائري ومسألة الهويّة والانتماء

أ-الهويّة في الخطاب الإبداعيّ الجزائريّ :

انطلاقا من أنّ الإبداع متنوّع ،فالتعبير عن الهويّة يلوذ بالماضي حينا ، وأحيانا يتباكى على الحاضر ، وأخرى يتغنّى به .ونحن حين نتحدّث عن الإبداع ،فإنّه لا وجود لإبداع يغرّد في المطلق ، متحررّا من سلطة وتأثير المجتمع الذي يعيش فيه وينتمي إليه وسؤال الهويّة أكثر ما يُطرح عند الأزمات الكبرى التي تتعرّض لها المجتمعات ، فعند كلّ صدمة أو صحوة قوميّة ينتبه شعور الخوف من التلاشي والضياع مثلما حدث للمجتمع العربي في مواقف تاريخيّة متفاوتة {*} .

فحين يطرح الشّاعر مثلا مسألة الهويّة يبدأها في حدود قبيلته ، ثم يمضي تدريجيا إلى بطولات قومه في إطار الفخر فيصل إلى التاريخ المشترك الذي يجمعه بقبائل أخرى حتى يصل إلى التعبير عمّا ما يربطه بأفراد قوميته:"بين شعبي وشعبك هناك خطّ.الخطّ يقول :ممنوع المرور النقطة ، الطريق مغلوق .وهكذا بين جميع الشّعوب خطّ ونقطة ،ونقطة و خطّ" .{3} فهاهنا الهويّة لا تعرف الخطوط والحدود ،فإنّها تتعدّى المجتمع ،الوطن ،إلى الوطن القوميّ.

وذلك من أجل العثور على الآخر وأسئلته ،هذا الآخر الذي لا يوجد بذواتنا بل يسكننا أيضا ،لذا الشّاعر يتألّم روحا وجسدا ،إذ عنده لا سبيل للتمييز بين الأنا والآخر .وفي رواية "مأوى جان دولان للروائي عمر بن قينة " يقف الشّاب الجزائريّ المتعلّم من الآخر موقفين على طرفي نقيض ،فإمّا متحلّل متفسّخ منسلخ عن هويّته (شخصية عيشة –بولرباح -)،وإمّا موقف المتزمّت الرافض للآخر (عبد الله) والذي يدّعى التشبث بالمبادئ لكنّه يكون غير صادق ،إذ أنّ بعض هذه المبادئ تتعارض مع مصلحة عاجلة فيضطرّ إلى التماس العذر لنفسه أو الفتوى أو المسوّغ الأخلاقيّ من أجل تحقيق المصلحة ،كما تصوّر الرواية هذا الشاب في الغربة حائرا بين بريق الغرب ومصيره المجهول الذي ينتظره .{*}

ويقول "زكرياء" معبرّا عن هذه الهويّة ،حيث يفاخر بالماضي ويشيد بالانتماء:

ملأت هذي العوالم عدلا وسلاما ورحمة وأمانا

وأفاضت على النفوس شعاعا ظلّ يكسو أرجاءها إيمانا

فأقرّت رسالة الله في الأرض وراحت تعلّم الإنسانا {1}.

كما أكّد "سحنون " بأنّ العنصرين الأساسيين اللّذين يحدّدان انتماء الجزائريين هما اللّغة العربيّة والإسلام ،فهما بمثابة القوادم و الخوافي في الطّائر ، فلا بد منهما للنهوض:

فالدّين والفصحى هما الأوائل والأواخر

مهما تآخينا وقامت بيننا أقوى الأواصر

وهما جناحانا وهل يسوى الجناح يطير الطائر؟{1}.

والواقع العربيّ قد ازداد سوءا عمّا كان عليه السابق ، فها هي "أحلام مستغانمي" تعلن في حالة يأس أنه لا أمل في عودة الفارس الذي سينقذ هذه الهويّة الضائعة ، فا امرؤ القيس قد اغترّ بالحليّة المذهّبة فلبسها وهي مسمومة ،وهذا لأنّه وثق بالأجنبي "القيصر" وهو وضع يعبّر عن الوضع الذي آلت إليه هويّة هذا المواطن العربيّ إزاء الآخر .

فها هي تقول :"

لا سيف في اليمن ،لا فارس تأتي به مراكب الزمـــن

قم غنّي يا أيّها الأمير من عصور ،اسأل كلّ جيفـــة

أين بنو أسد ؟ لا نبض في قلوبنا ...أتيتكم أسأل عن أحد

لكنّ فرعون هنا، لا يمنح الحياة للرجال ، يا ضيعة الرجال

قم أيّها الأمير ،فعندما تحرّكت عواطف الجيـــران

والقيصر البطل قد هزّه التذكار والحنيـــــن

أقسم أن يهدي لنا أحداث ماحيك من حُلـــــل "{1}.

وها نحن كما تقول"أحلام مستغانمي" نستمرّ في البكائيات التي تشبه بكائيات "أبي البقاء الرندي" كلّما حلّت بالوطن نكبة جديدة .والإشادة بالنّحن وصبّ اللّعنات على الأخر تعبير عن انتماء حاول الأخر طمسه وبذلك هو طمس للـهويّة ها هو "مشري بن خليفة" يقول:

"وهذه يد بيضاء سلسبيل ،وأيديهم موت وجنون تبّت يداهم ،تبّت يد الجرح السليل سيرميهم القلب بحجارة من سجّيل "{2}.

فحروف الله ما يئست ، والجروح مالتأمت ،فأمّة الطّهر غلبها الماء ،فهاهم الغزاة أكثروا الجراح فينا ، أثخنونا ،مغول حضارتهم نار عاثت فسادا ،فساد الخراب ومع هذا فالأصل نحن ونحن الأصل . ومجمل القولّ :إنّ التعبير عن الهويّة لا يعدو أن يكون تباكيّا على الماضي المجيد و تحصّنا بالقيّم وذلك الأفضل ،والوقوف في وجـه الأخر ، وفي مستوى التعبير نلاحظ إسقاطا صور من التراث أو توظيف رموز فنيّة وهذا كلّه عن وعي لا مناهضة فيه للروح القوميّة والإنسانيّة ،إذ أنّ المبدع كان في حالة فيها كان لا يفرّق بين المحليّة والقومية .

ب-الانتماء في الخطاب الإبداعيّ الجزائريّ :

إنّ الخطاب الإبداعيّ الجزائريّ مترع بأشكال التعبير عن هذا الانتماء الحضاريّ ؛إذ كان في جلّ بل معظم الفترات منـبرا للتأكيد على تحقيق مطالب الشّعب الجزائريّ في العيش والحريّة والسيّادة في ظلّ الاستعمار ،دون أن ينسى إثبات وعيه وإحساسه بالأخر العربيّ .

ولا نغفل في هذه العجالة ، المساعي الحثيثة التي دأب المستعمر الفرنسيّ عليها لأجل إسقاط عن الجزائر عناصر انتمائها الحضاريّة ،هذا الأمر الذي جعل المبدعين يستعدّون للمجابهة والمواجهة ،فكان أن انطلقت الكلمات كالرّصاص الذي كان المجاهدون يصوّبونه نحو فرنسا وأتباعها .

((ويتغنّى الشّعر بعروبة الثورة وعروبة الجزائر ،كما لم يتغنّ بها من قبل وتنطلق القوميّة انطلاقة شعريّة فيها عنف الاحساس الخانق طيلة هذا الاحتلال ،وتنطلق لفظة العروبة في كل القصيدة ،وكان الإصرار من الطرف الآخر على سنفونيّة (الجزائر فرنسيّة) يزيد من جموح هذه اللّفظة وإلحاحها على الأبيات والقوافي))[1]

وتتجسّد رغبه الانتصار في مجال استكمال مقوّمات الشخصيّة الوطنّية من شاعر إلى آخر ،ولعلّ إشادة الشّاعر الجزائريّ مفدي زكرياء بزيارة جمال عبد الناصر إلى جزائر في 1963 خير شاهد على ما ذهبنا إليه "هاهنا معقل العروبة ،(كالنيل) وفاء ،(كمصر)أرض المغاور.

هاهنا كانت المذابح تذورنا هشيما ،وتنتقينا المجـــازر

هاهنا عبقريّة العرب الشم تسامي بها ذكاء العباقـــــر

هاهنا (بر سعيد) سبعا شدادا هاهنا نصرع الطغاة الجبابـر

هاهنا يا (جمال) عار (فلسطين) سيمحي أما عقدنا الخناصر

فهنيئا بوحدة انتم فيها صمّام الأمان يا (عبد النّاصـــــر)

وحدة الصفّ للعروبة دين كلّ من خان الوحدة خائن خائر [2].

وعند الشّاعر محمد العيد الخليفة يسير الشّعر بعد الاستقلال مسار التعبير عن عمق هذا الانتماء فها هو يقول عندما توفيّ أحد الدّعاة إلى هذا الانتماء (محمد البشير ابراهيمي):

"فلقد كنت للعروبة فينـــا ولدين الإسلام رمزا حكيمـا

ولقد كنت للجزائر طـودا بين أطوادها تشقّ السد يما [1].

ويقول في قصيدة خاصّة بالإمام عبد الحميد بن باديس:

عاش وقفا على الجزائر والإسلام يرعاهما وفيّ الذّمام

وغيورا على الشّريّعة يأبى غير تشريعها لفضّ الخصام

وغيورا على العروبة يشفي ضادها لا هجا به في الكلام[2].

وهنا تبرز أمامنا ظاهرة الأنا و النّحن ؛ فـــالانطلاق من أنا واحدة والانتهاء إلى نحن هو تعبير عن هذا الانتماء وذلك أنّ الزّمن لم يعد للفرد وإنّما للجماعة التي ينتمي إليها ، ونضيف أنّ الغيرة على العروبة لا تتّم إلاّ إذا كان المبدأ هو الدّفاع عن العربيّة ومردّ ذلك كلّه هو التشبّع من ينابيع الثقافة العربيّة . وحتى في موطن النكسات والانتكاسات يحاول الشّعر صنع الأمل ،ورفع التحدّي وربط هذه الأمّة بأصلها ،وغرس في نفوس أبنائها أنّنا في الجرح والمصير واحد يقول الشاعر أبو الحسن على بن صالح في قصيدة (نكسة يونيو):

"هبّت جماهيرنا للذوذ عن حـرم إنّ الجماهير أبطال ميامين

طارت جزائرنا في جيشها وبدت كاللّيث قد برزت منه البراثين

طيّارها كشهاب راح منطلقـــا فانقضّ فاحترقت منه الشياطين

وسوريا في خطوط النّار صامدة على العدى انفجرت منه البراكين

قد ارتدى الأردن المغوار أرديّة الدّماء يدفعه الإيمان والدّيـــن
إنّ العراق عريق في بطولتـــه على استماتته دلّت براهيـــن {3}.

ثمّ إنّ الالتزام في الابداع لا يعنيّ مجرّد اتّخاذ موقف فحسب ، بل يعني أن يعبّر هــذا الموقف عن وجهة نظر هذا المبدع ازاء ما ينتميّ إليه ، ونعني به الموطن الذي يعيــش فيه فعندما تقرأ للشاعر الجزائريّ " محمد الأخضر السائحيّ " رحمه الله .

كان وهما وكان حلما بعيدا أن نناجيك يا نوفمبر عيدا
وتعود الدّموع فيك ابتساما ويعود النشيج فيك نشيدا
قل ليوليو هنا نوفمبر بــاق خلّدا النصر مجده تخليـدا{1}

إنّ هذا الشّعر وإن كان يقف في الطرف الثانيّ عن الجمال ، إلاّ أنّ الاشـتغال على الرمز " يوليوا ، نوفمبر " يعطيّ للأبيات بعدا لإنتماء الشاعر ،ونعنيّ به الوطن الذي لولا "نوفمبر" ما عاد لأهله . ولا نتجاوز هذا المعطى حتى نقف عـند نـصّ آخر للشاعر " عزوز بن عقيل " الذي لم يشهد ما شهده "الأخضر السائحيّ

يحاصرك الشّعر ، لكن رفضت الصبـاح
سخرت من الشّمس ،فضّلت عنها القـلق
ورحت تغنيّ مع الشهداء ، نشيد الجزائر{2}

إنّ استمرار التجربـة الشّعريّة نفسها رغم اختلاف التجربتين ، وهذا يعنيّ أنّ الحالـة الشـعوريّة نفسـها عنـدما يتعلق الموضوع بموطن الانتماء ، حتى وإن اختلف الإبداع من جيل إلى جيل ، فإنّ شعور الانتماء يبقى واحدا . وها هو" بغداد السّائـــح " يقول:

وطن تخطّ له الملاحم جرجره ويجيء يقرأ في اللحود نفمبره{3}

نلمس عند الشّاعر جنوحا الى الرمز ، وتكثيف الايحاء مع بعد الدلالـة ، وهـي دلالـة واحدة :الانتماء الى هذا الوطن . :

"تنتصب قامتي كسمهريّ مقـــــــــــوّم
خلفها في عنف يمتدّ ظلّـــــــــــــي
في فورة الشّمس في وهجها يتسلّقهـــــــــا
تتعب قامتي تستريح ،بعد اللّحظات تنحنـــــــيّ
في هدأة اللّيل في وحشته ،يحترف صوغ القرارات ضلّي
فاجأته قامتي ضبطته كطفل يبكـــــــــــي
في زوايا حلم في مُدني، تُعلن حالة الطـــــوارئ
في تعبئة عامة تنتشر عيون قامتـــــــــــي ،
بعد بحثٍ طويل تعود ، في خافقها أقرأ خيبـــــتي
تنسلخ عيون قامتي عن قامتي تمـــــــــرّدا ،
تستعير عيون أعمى معرّة النعمـــــــــــان

في سدوم قيل نقرتها طيور اللقلـــــــــق {1}

نلاحظ في هذا النص تحوّلا رهيبا من الغياب إلى الحضور إلى ضمير المتكّم ،وتكثيف الرمز مع استعمال "سدوم" كتيمة بتكثيف الايحاء ودلالة الرمز ، مما يولد معاني مفتوحة على كلّ القراءات والبعد الإنسانيّ الذي يتلاحم والبعد الوطني في عناق قوامه الجمال والفن .في هذا الشّعر مشهد مؤلم لهذا الشخص الذي ضلّ عن منزل وجوده وتاه في أحلامه ،ويصحو وقد افتقد كلّ أثر يمكن يقوده إلى هذا المنزل ،ويدله عليه وتأبى الأحلام ، وتفصح الخيبة أنّ هذا المنزل لم يعد له وجودا إلاّ في شعوره . وخلاصة القول أن الأساس في الخطاب الابداعي الجزائريّ وعيّ بهذا الانتماء والتّوجّه إلى ترسيخه والسّعي إلى تكريسه وما يتلاءم مع مختلف المعطيات التي أنتجت الخط السيّاسيّ والثوريّ والاجتماعيّ ،وبالتالي فإنّ هذا الخطاب كرسّ فعلا وعزّز هذا الانتماء ووقف في وجه كل من حاول فصل الجزائر عن كيانها كأمّة جزائريّة عربيّة إسلاميّة .

قائمة المصادر والمراجع

1) {*}نعني بالعرقيات ما أفرزه الحس الطائفيّ (قبائلي ،عربي ،شاوي)ناهيك عن التدخل الخارجي.
2) {*}وخصوصا ما وقع في العشرية السوداء من قتل وتخريب ودمار.
3) {1}فيما يتعلق ب: "الهوية" و" مبدأ الهويّة" ،انظر :مراد وهبة ،المعجم الفلسفي ،ط.مزيدة ومنقحة (القاهرة :دار الثقافة الجديدة ،1979)،ص 460-461و383ووزارة التربية القوميّة التونسيّة ، معجم الفلسفة (تونس : شركة فنون الرسم ، 1977) ،ص 201-202 .
4) {2} المعجم الوسيط ط2 مزيدة ومنقحة القاهرة دار الثقافة الجديدة 1979ص400-401-402.
5) {1}نديم البيطار، حدود الهويّة القوميّة :نقد عام (بيروت:دار الوحدة، 1982)، ص[19]
6) {*}بشرط تماثل أفرادها وانصارهم في وجود المجتمع الجماعي،نفس المرجع(ينظرالهامش رقم 1 {*}المقصود بالجماعة هي الأمّة .
7) تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين ((الكارثة أو الأمل)):التقرير التلخيصي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي، تحرير سعد الدين إبراهيم ،مشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي: تقرير نهائي (عمان: منتدى الفكر العربي(الكويت)::الجمعية الكويتية لتقدّم الطفولة العربيّة ،1991)،ص 37.
8) {*}منظومة القضايا الفكريّة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة في المجتمع .
9) {1}انظر :الفيروزآبادي،القاموس المحيط،ص1727ابن منظور ،لسان العرب،ج15،ص342
10) {2}هذا التعريف مأخوذ من بدران، عمر سليمان ،هكذا يكون الانتماء للوطن ،(د.ن)، (د.م)،ط1،(د.ت) ،ص15،الدروع،قاسم محمد والعرفان ،عبد الله راشد ،نحو تربية وطنية هادفة ،(د.ن)،(د.م)،(د.ط)،1999م،ص32،ناصر ،المواطنة ص 23.
11) {3}مجدي أبو زيد((قضية الانتماء وأسطورة بيوريدان)) (موقع إسلام أو لاين على الانترنات)،ص1.
12) {1} مجدي أبو زيد ((قضية الانتماء وأسطورة بيوريدان)) (موقع إسلام أون لاين على الانترنت) ،ص1. {2}عبد المنعم المشاط ،((التعليم والتنميّة السياسية ،)) مستقبل التربية العربية (القاهرة) ، السنة 1،العدد 2 (1995) ص 17.
13) {*}العشريّة السوداء في المجتمع الجزائريّ ،ما يقع الأن في سوريا ،في العراق ،في ليبيا....
14) {3}عبد الكبير الخطيبي ،حبّ مزدوج مطبعة أدديف سبتمبر،1992.

15) {*}عمر بن قينة، رواية :مأوى جان دولان ،الشّركة الوطنية للتوزيع ،ط1/1992 {1}اللّهب المقدّس ،مفدي زكرياء الطبعة الثانية، مؤسسة الوطنيّة للكتاب 1991ص 177.

16) {1}سحنون أحمد شعراء الجزائر ،الديوان الشركة الوطنيّة للتوزيع ط1ط،1977.

17) {1}احلام مستغانمي ،ديدان على مرفأ الأيام الشركة الوطنية للتوزيع ط1972،1.

18) {2}مشري بن خليفة الديوان ،دار الخامد للنشر والتوزيع ،ط1/مج/2011م

19) {1}صالح خرفي :الشعر الجزائريّ الحديث ،المؤسسة الوطنّية للكتاب الجزائري 1984 ص259.

20) {2}مفدي زكرياء ،أمجادنا تتكلم ،تحقيق وجمع مصطفى بن الحاج بكير حمودة ،مؤسسة مفدي زكرياء الجزائر 2003ص192.

21) {1}محمد العيد الخليفة :الديوان ،ط3.المؤسسة الوطنيّة الجزائر .دت.ص 490.

22) {2}المرجع نفسه ص 497.

23) {3}أبو علي بن صالح .مآسي وأين الأسى ؟ المؤسسة الوطنيّة للكتاب .الجزائر1988 ص44 .

24) {1}الأخضرالسائحي:الديوان ،ط2.المؤسسة الوطنية الجزائرية .دت.ص80.

25) {2}عزوز بن عقيل الديوان ،الشركة الوطنية للتوزيع ط1.ص 45.

26) {3}بغداد السائح:قناديل منسية منشورات {ليحوند}صفحة 70.

27) {1}بغداد السايح : قناديل منسية ،منشورات {ليجوند}ص 80.